الباب الثاني

التسامح الحضاري في الفكر الجزائري

الفصل الأول

التسامح الحضاري في فكر ابن باديس

تمهيد

لقد بدأ الاحتكاك بين الحضارة الإسلامية، والحضارة الغربية منذ عهود مضت، وتحديدا عندما احتك الغرب بالمشرق أثناء الحروب الصليبية، في الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي نموذجا قويا للحضارة الإنسانية تتسابق نحوه الأمم لمحاكاة أنماطه ونماذجه في كل مجالات الحياة: العلمية والفكرية والاجتماعية والثقافية التي استمدت أصولها من مبادىء الدين الإسلامي نفسه. ومن خلال ذلك الاحتكاك، أدرك الإنسان الغربي ضعفه أمام القوة الحضارية التي كان عليها العالم الإسلامي، وقتئذ، واستطاع أن يكتشف ذاته، ومستواه الحضاري بين الأمم.

إن التفوق الحضاري الذي كان عليه العالم الإسلامي، جعل من خصومه شاهدين عليه وعلى أنفسهم بأنه كان من الرقي والازدهار العلمي والثقافي والإنساني مما جعل الشعوب والأمم الأخرى تقلده، وتدخل في عقيدته، وتتخذ منه (دينا)، وخصوصا أوربا، فكما تقول زيغريد هونكه، صاحبة كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب": ((إن أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية وأن الدين الذي في عنق أوربا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جدا وكان يجب على أوربا أن

تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد لكن التعصب الديني واختلاف العقائد أعمى عيوننا وترك عليها غشاوة))[1]. وهذا كله عكس ما يدعيه بعض الطاعنين في الحضارة الإسلامية وفي الإسلام وفي القرآن نفسه على وجه التحديد من أنه انتشر بقوة السيف، بل إنه كما يقول لوبون مؤلف كتاب "حضارة العرب" ــ وهو من الغربيين الشاهدين على أنفسهم ــ أن القرآن لم ينتشر: ((بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرا، كالترك والمغول))[2].

---

(١). زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة:د.فؤاد حسنين علي، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ص أ. ويمكن في هذا الصدد الرجوع إلى كثير من المفكرين الغربيين الذين تناولوا نفس الموضوع، وبينوا فيه تأثير الحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الغربية، ولكنهم يختلفون في تقدير كمية ذلك التأثر وعناصره، ومنهم على وجه الخصوص:

ــ غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة، ٢٠٠٠م.

ــ جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة جورج حداد وآخرون، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٧٠م، ٦أجزاء.

ــ توبي أ.هاف، فجر العلم الحديث (الإسلام ــ الصين ــ الغرب)، ترجمة أحمد محمود صبحي، عالم المعرفة، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، شوال ١٤١٧هـ، مارس ١٩٩٧م.

ــ ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

(٢). غوستاف لوبون، حضارة العرب، صفحة المدخل.

وقد استطاعت الجزائر التي عرفت الإسلام منذ عقبة بن نافع، في القرن الأول الهجري، واندماجها في حضارة الدين الجديد "الإسلام"، أن تحافظ على هويتها الحضارية، منذ ذلك العهد إلى اليوم. كما استطاعت أن تقدم للفكر الإسلامي أعمالا حضارية من خلال مفكريها عبر التاريخ، على مستوى الاجتهاد الديني والفكري والأدبي والتاريخي، وبذلك ساهمت الجزائر في إثراء الحركة الحضارية للإسلام.

ومن بين الحركات التي ساهمت في تلك الحركة، حركة الإصلاح التي قام بها العلماء في الجزائر في أوائل القرن العشرين، والتي كان من روادها المؤسسين: ابن باديس، الذي استلهم أفكاره من نصوص القرآن، أولا، إذ قال بشأنه أن الذي: ((كون رجال السلف لا يكثر عليه أن يكوّن رجالا في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه))[1]، كما استلهم أفكاره، ثانيا، من السنة النبوية الشريفة، التي أصبحت فيما بعد الدعامة الأساسية في تفسيره للقرآن الكريم. يضاف إلى المصدرين السابقين، ما تحصل عليه من علوم ومعارف، خلال دراسته على كثير من المفكرين لمسلمين المتشبعين بالحضارة العربية الإسلامية وتأثره بهم، سيما في تونس، وبالخصوص أستاذه الشيخ الرملي، الذي أوصاه عندما طلب منه ــ وهو عائد إلى الجزائر ــ النصيحة، في كيفية التوفيق بين الآراء التي تبدو متضاربة في ذهنه، فأشار عليه بأن: يجعل عقله مصفاة لكل شيء. ويظهر ذلك التأثر

---

(١) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥م، ص١٢٤.

بمشائخه، خصوصا في قوله: ((مشايخي الذين علموني العلم وخططوا لي مناهج العمل في الحياة، ولم يبخسوا استعدادي حقه))[1].

ومن مصادر فكر ابن باديس كذلك، ما وصل إليه من آراء وأفكار لكثير من أقطاب الفكر الإسلامي في صيرورته الحضارية، ممثلا، على وجه الخصوص، في آراء الحسن البصري، وأبي الحسن الأشعري، والغزالي، وابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية، ورجالات النهضة الحديثة، من أمثال محمد بن عبد الوهاب والأفغاني وعبده.غير أن وجود الاستعمار الفرنسي في الجزائر، تركه يطلع من خلاله على حضارة الغرب، والاحتكاك بها. ولكنها لم تستطع أن تسلب نظره وفكره، رغم مظاهرها البراقة. إذ بقي ابن باديس وفيا لتراثه الإسلامي وأصوله.

والحقيقة أن حركة الإصلاح التي قادها ابن باديس، كانت بوادرها الأولى قد ظهرت أثناء زيارته للحجاز لأداء فريضة الحج، ولقائه بالشيخ البشير الإبراهيمي هناك، الذي أشار إلى تلك المناسبة بقوله: ((وأشهد الله على أن تلك الليالي من عام ١٩١٣م [أثناء وجودهما في الحجاز] هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز للوجود إلا في عام ١٩٣١م))[2]، فكأن حركة جمعية العلماء الإصلاحية، حسب قول الإبراهيمي، قد ولدت في الديار المقدسة بالحجاز، ولذلك فإنه يمكن القول أن الحركة الإصلاحية كانت بعيدة عن الأساليب التجريدية،والكلامية غير العملية، خاصة وأن رائدها ابن باديس كان رجلا عمليا، في طبيعته الإنسانية، فكانت حركته أقرب إلى النفوس، وإلى الواقع

---

(١). المرجع نفسه، ص١٢٣.

(٢). المرجع السابق، ص١٢١.

العملي، مستلهمة أسسها من المنهاج القرآني، الذي قرره الله تعالى في قوله: ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم))[1]، بمعنى أنه كان يرى، أن الحل الأساسي لكل الإشكاليات والقضايا التي يتخبط فيها أي شعب، إنما يكمن في روح الأمة التي استلهمت منهاجها العملي من القرآن والسنة، ولذلك كان شعار، مجلة "الشهاب"ـ لسان حال جمعية العلماءـ هو: ((لا يصلح حال هذه الأمة، إلا بما صلح به أولها))، والمقصود بذلك ضرورة اتباع منهج رجال السلف الصالح من الأمة الإسلامية. ومن هنا فإنه يستحيل، حسب ابن باديس أن تبنى حضارة أمة، بشراء أدواتها ووسائلها، وإنما لابد لها أن تصنع أدواتها ومنتجاتها بذاتها، لأن الحضارة بناء، وليست مجرد استهلاك، ومن ثم كان يعتقد أن أي حل لها لا يتم إلا إذا ارتفع الشعب بوعيه وفكره، إلى مستوى الأحداث الإنسانية، وتعمق في إدراك وفهم العوامل التي تؤسس الحضارات، وتؤدي إلى هدمها.

وقد حدد ابن باديس لتأسيس أية نهضة حضارية أربعة عناصر أساسية، لابد ان تتفاعل فيما بينها، عبر عنها بقوله، إن: ((أركان نهضتنا وأركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين))[2]، هي: ((العروبة والإسلام، والعلم والفضيلة))، ومن هنا فإنه لا وجود لحضارة في رأيه، ولا حوار حضاري خارج المجتمعات البشرية، لأن الحضارة ظاهرة اجتماعية يتميز بها الكائن البشري، دون سواه من الكائنات، ومن

---

(١). سورة الرعد، الآية١١.

(٢). محمد الطاهر فضلاء، قال الشيخ الرئيس، الإمام عبد الحميد بن باديس، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ١٩٦٨م، ص١٦٣.

ثم، كان ابن باديس يؤكد على ضرورة التواصل الحضاري بين الأمم، لأنه هو وحده الذي يحقق الرفاهية والسعادة الإنسانية، ولا يتم ذلك إلا في إطار التسامح والتعاون، الذي تحترم فيه الأمم بعضها بعضا.

ولعل هذه الصيحة الحوارية التي حمل هاجسها ابن باديس هي التي تتطلع إليها كل الأمم والشعوب، بدون استثناء، ولاسيما في وقتنا الراهن. من أجل ذلك فإننا سنركز في موضوع هذا البحث على أهم العناصر التي ارتأى من خلالها ابن باديس بناء هذا التواصل الحضاري، وتتمثل في: التسامح، والحضارة.

أولا: معنى التسامح

جاء في المعاجم المختلفة أن للتسامح عدة معاني، تختلف باختلاف اللغات، والثقافات والعصور. ولكن يبدو أن تلك المعاني تصب كلها في معنى واحد تقريبا.فقد أجمعت المعاجم العربية على أنه من ضمن المعاني الأساسية للتسامح، هو الجود والكرم، وسهولة الانقياد والطاعة. أما لفظ التسامح (Tolérance) في ذاته، فقد ظهر في أوربا لأول مرة في القرن السادس عشر نتيجة للحروب الدينية التي جرت بين الكاثوليك والبروتستانت، وبالتالي فاللفظ عند الغربيين مستمد أساسا من الفكر الديني المسيحي.ثم أصبح المصطلح يدل عند مفكري القرن الثامن عشر على ما يتصف به الإنسان من ظرف وأنس، وأدب وحكمة، تمكنه من معايشة الناس بالرغم من اختلاف آرائهم عن آرائه، ومعايشة الناس، تفضي إلى التلاؤم الاجتماعي، الذي بدوره يؤدي إلى تقلص درجة التوتر والعنف بين أفراد المجتمع، وإلى تقوية روح المعاشرة بينهم، وذلك باعتبار المعاشرة تدل على نمط حضاري

جديد ينتج عنه أيضا نمط من الامتثال الاجتماعي. ولذلك فإن "المسامحة "، كما يقول الجرجاني: ((هي ترك ما يجب تنزها))[1]، أي: بمحض إرادة الشخص نفسه، من غير قسوة أو قهر أو إكراه.

في هذا المعنى، فإن لفظ التسامح، يستخدم عند علماء اللاهوت الغربيين، بمعنى الصفح والعفو عن مخالفة المرء لتعاليم الدين. ويظهر من ذلك، أن هذا المعنى الاصطلاحي الغربي، لم يكن مطروحا في الحضارة العربية الإسلامية، بالصورة التي ظهرت عند الغربيين في القرن السادس عشر. وإن كان لفظ التسامح يحمل في ذاته، معنى العفو والصفح حتى في الثقافة العربية الإسلامية. إلا أنه بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية قد استخدم التسامح من طريقين: طريق إلهي، لأن الله تعالى هو الذي يملك الإرادة في العفو عن المخالفين لدينه، إن شاء ذلك، حيث: ((يمكن الإنسان من تقويم حياته، وتخطي ضلاله وسيئاته، ليعود إلى إخلاص الإيمان ولإصلاح المسلك. وذلك بأنه يغفر، وبأن طاعته وأخلاقه المغفرة. فهو كثير الغفران، ولذلك سمي الغفور))[2]. كما جاء في قوله تعالى: ((فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم))[3]، وفي قوله تعالى أيضا: ((لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو

---

(١). الجرجاني، التعريفات، حققه وقدم له، إبراهيم الابياري، دار الكتاب العربي، لبنان، ط٤، ١٩٩٨م، ص٢٧١.

(٢). عادل تيودور خوري، ومشير باسيل عون وآخرون، الرحمة الإلهية في المسيحية والإسلام، المكتبة البوليسية، جونية، لبنان، ١٩٩٩م، ص١٥.

(٣). البقرة، الآية ١٩٢.

الغفور الرحيم))[1]، وكذلك قوله تعالى: ((بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم))، وفي هذه الآية كما يقول ابن باديس أن الله عز وجل كرر لفظ الرحمة أربع مرات في موطن واحد، وذلك لنستشعر رحمته بخلقه، ولذلك، فإذا: ((كان رب الناس الذي هو المالك لهم على الحقيقة يعامل عباده بمقتضى هذه الرحمة التي وسعت كل شيء فأحرى أن يتخلق عباده بأخلاقه، وتظهر عليهم آثار هذه الأخلاق في معاملة بعضهم لبعض))[2]، والرحمة الإلهية اشتملت عليها كل الكتب السماوية[3].

وكذلك نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم أكد على مسألة الرحمة والتراحم والتسامح، حيث قال: ((جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل على الأرض جزءا واحدا. فمن ذلك تتراحم الخلائق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه))[4] وكذلك قوله،صلى الله عليه وسلم: ((من لا يرحم لا يرحم))[5]، وتكون الرحمة من طريق العبد، كذلك، عندما يملك العبد القدرة على العفو والصفح عن غيره، ولذلك جاء في الحكمة

---

(١). الزمر، الآية ٥٣.

(٢). عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م، ج٢، ص٣٣٨.

(٣). للمزيد من الإطلاع على مضامين الرحمة في الكتب السماوية راجع: عادل تيودور خوري، ومشير باسيل عون وآخرون، الرحمة الإلهية في المسيحية والإسلام.

(٤) رواه البخاري، ومسلم.

(٥) رواه أبو هريرة.

السائرة:" إنما العفو عند المقدرة ". فالعفو والرحمة أصل من أصول التصور الإسلامي في الإيمان بالله: ((فلا يمكن المسلم أن يؤمن بالله وبصفاته دون أن يعتقد أن علاقة الخالق بعباده تنطلق من مفاهيم الرحمة))[1]، ومن كل ذلك كان من الطبيعي على الإنسان المسلم قبل غيره أن يكون: ((رحيما مع جميع من حوله، وأن يتحول قلبه إلى ينبوع للرحمة في سائر شؤون الحياة، بذلك يغدو المجتمع البشري متراحما ملؤه المحبة والنصيحة والرفق والعطف المتبادل))[2]. ومن هنا نستنتج أن المعنى الغربي للتسامح من حيث مدلوله الاصطلاحي إنما جاء دخيلا وغريبا على المفهوم الحديث الممارس في الثقافة الإسلامية ـــ كما سبقت الإشارة ـــ.

وعلى هذا النحو، فإنه يمكن حصر معاني التسامح في ثلاثة ضروب: الأول، هو المعنى الذي يدل على احتمال المرء، الاعتداء على حقوقه دون اعتراض، بالرغم من قدرته على دفعه، أو هو تغاضي السلطة بموجب العرف والعادة عن مخالفة المرء لبعض القوانين التي عهد إليها بتطبيقها. والثاني، هو المعنى الذي يؤسس لقاعدة سلوكية تتمثل في أن تترك لكل إنسان حرية التعبير عن آرائه وإن كانت مخالفة لآرائك. أما الثالث، فهو المعنى الذي يدل على احترام المرء لاعتقادات الغير ولآرائهم باعتبار تلك الآراء تساهم في البحث عن الحقيقة المطلقة[3]، وهي الحقيقة التي لا يمكن أن تنحل إلى معنى واحد من الضروب المذكورة. لأن الوصول إلى

---

(١). عادل تيودور خوري، ومشير باسيل عون وآخرون، الرحمة الإلهية في المسيحية والإسلام، ص١١٩.

(٢). المرجع نفسه، ص١٢٧.

(2). André Lalande, Vocabulaire Technique et critique de la philosophie, P.U.F Paris édition 6eme 1988 p 1133.

معرفة العناصر المختلفة للحقيقة المطلقة، يوجب الاعتراف ضمنيا، بحق كل إنسان في إبداء رأيه، والاطلاع على مختلف الآراء يؤدي إلى الكشف عن معرفة الحقيقة الكلية.

ولذلك كما يقول كلود ليفي ستروس: ((فليس التسامح موقفا تأمليا يمنح الغفران عما كان، وعما هو كائن وإنما هو موقف ديناميكي يتمثل في توقع ما يجب أن يكون وفهمه والارتقاء به وتنوع الثقافات الإنسانية ظاهرة تنتمي إلى الماضي وتحيط بنا في الحاضر وتدفهنا إلى المستقبل وليس لنا ما نطالبها به إلا أن تتحقق في أشكال يكون كل واحد منها إسهاما في أهم ما عند الآخرين من الأريحية، وهي مطالبة تنشأ عنها بالنسبة إلى كل فرد واجبات تقابلها))[1].

وعلى العموم، فإنه كما يشير جميل صليبا، فليس تسامحنا، وترك الناس وما هم عليه من عاداتهم واعتقاداتهم، وآرائهم، منّة نجود بها عليهم، وإنما هو واجب أخلاقي ناشئ عن احترام الشخصية الإنسانية[2]، في ذاتها ولذاتها.على أساس أن تلك الشخصية تحمل في ماهيتها قيم التسامح.

من هذا المنطلق، يمكن التأكيد بأن الإسلام قد سبق كل المفاهيم والتحديدات لمعنى التسامح. فالإسلام قد حث المؤمنين على الاتصاف بالتراحم والتسامح، لأن الاتصاف بهما صفة من صفاته. فما: ((لأحد أن يطمع في رحمة الله ما لم يظهر الرحمة

---

(١). نقلا عن: صلاح ستيتية، أسباب الحوار بين الثقافات وآفاقه، في: الحوار الثقافي الأوروبي متطلباته وآفاقه، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ٢٠٠٢، ص٥٥.

(٢). جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، لبنان، دار الكتاب المصري، مصر، ١٩٧٨، ج١، ص ص ٢٧١، ٢٧٢.

في معاملاته مع غيره من سائر البشر [وليس من المسلمين وحدهم] ولا في غفرانه ما لم تكن السماحة والصفح الكريم من أخلاقه))[1]، إن التسامح الذي تنشده اليوم كل الشعوب والأمم، هو ابتعاد تلك الأمم مهما كانت عقيدتها عن فرض هيمنتها على غيرها بأي شكل من الأشكال، وفي أي ظرف من الظروف، وأن تبتعد عن أسطورة التفوق العرقي والجنسي لشعب من الشعوب أو أمة من الأمم عن غيرها، ويمكن تحديد مظاهر التسامح حسب ابن باديس، فيما يلي:

١ - التسامح مع الذات

إننا نعتقد أن عبد الحميد بن باديس الذي غادرنا منذ أزيد من ستين عاما بجسده، لا يزال حيا معنا بأفكاره ويعيش واقعنا بآلامه وآماله، لأنه حركته ـــ كما سبقت الإشارة ـــ كانت حركة عملية، وأنه استطاع أن يتصف بصفة المفكر الذي لا يأبه في طرح المسائل المسكوت عنها، والتي يعتقد أنها خارجة عن نطاق الفكر، أو أنها تؤله الأفكار والمقولات. لقد أدرك بفكره أن آفة المجتمع الجزائري في عصره ـــ وبالطبع آفة كل المجتمع الإسلامي ـــ تتمثل في النخبة من أبنائه، الذين انقسموا فيما بينهم إلى قسمين متصارعين، لا تسامح بينهما، قسم أخذ علوم الدين واللسان، والقسم الآخر أخذ علوم الأكوان والعمران، أي العلوم الطبيعية وغيرها باللسان الأجنبي. فاعتبر القسم الأول من النخبة، القسم الثاني كفارا، لأنهم لم يفكروا بلسان

---

(١). حسين أحمد حسين، سماحة الإسلام، مجلة العربي، تصدر عن وزارة الإعلام، بدولة الكويت، العدد ٤٩٥، فبراير١٩٩٧م، ص٤٢

الأمة وبعلومها، كما اعتبر القسم الثاني من النخبة، القسم الأول أحجارا[1] لأنهم لم يفكروا بلسان غيرهم وبعلومهم، وهذا قد لا يمثل صراعا بين أفراد وجماعات، بقدر ما يعبر عن صراع بين حضارات وعلوم، بين علوم أصيلة، وعلوم وافدة أو دخيلة. ولكن أليس هذا ما يخالف العلم والدين في ذاتهما؟ــ كما سنبين ذلك فيما بعد ـــــ ألم يحارب الدين هذه الآفة أو الظاهرة؟ ألم يبن الدين والعلم معا على مبدأ التسامح؟ ألم نزل في حاجة إلى أفكار من مثل هذا النوع يترع فيها الصراع بين الحقيقتين: الدينية والعلمية، وبين أبناء الأمة أنفسهم؟ ألم يكن هذا ما فعله ابن باديس، حين سعى إلى إزالة هذا الصراع والتناقض بين أبناء الأمة الواحدة، الذي أججه الجهل والاستعمار، والابتعاد عن الدين الصحيح، حتى أنه قال، في هذا المعنى: ((توليت إفهام كل طرف قيمة الطرف الآخر وبينت للجميع أنهم مهما نطقوا بأي لسان فهم من الجزائر وإلى الجزائر، ولا تنهض الجزائر إلا بهم، ولا ينهضون إلا بها))[2].

لقد استلهم ابن باديس، من عقيدته، ومن عادات وتقاليد مجتمعه ومن الحضارة الإسلامية، مجموعة القيم التي كان يحث الجزائريين على الامتثال لها إذا أرادوا مسايرة حضارة العصر ــ رغم اتساع هوة الخلاف والصراع ــ ومن هذه القيم أن يبتعدوا عن الخلافات والصراعات، التي تتنافى ومجموعة القيم سواء كانت دينية أو إنسانية، لأنه من النادر أن تكون لقيم الشرعية مخالفة للقيم الوجودية أو الإنسانية، وقد كان هو نفسه يبتعد عن هذا الصراع ومتسامحا مع غيره سواء مع

---

(١) عمار الطالبي، النزعة الإنسانية والجمالية عند ابن باديس، الفكر، مجلة جامعية تصدر عن جمعية الأمل، باتنة، السنة الأولى، العدد١، ماي ١٩٩٣م، ص٩٣.

(٢) عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج٤، ص٣٣٢.

الجزائريين أو مع غيرهم، ويتضح ذلك من خلال ترأسه وفدا جزائريا يتكون من العلمانيين الجزائريين ومن الشيوعيين الذين يخالفونه في التوجه الفكري للتحاور مع الفرنسيين بشأن استقلال الجزائر. فكان يناشد الجميع بقوله: ((تناسوا الحزازات، امحقوا الشخصيات، برهنوا للعالم أنكم أمة تستحق الحياة، برهنوا لفرنسا أنكم كما وقفتم معها في الحرب صفا واحدا تدافعون عنها، تقفون في السلم صفا واحدا تدفعون الأنانيين منها الذين هم مثل أعدائها))[1].

ومن ثم يتضح من أن ابن باديس لم يحث الجزائريين و المسلمين على إزالة الحقد والتعصب الديني بينهم وبين غيرهم فحسب، بل وحتى بين الجزائريين المسلمين أنفسهم، نظرا لما كانوا يعيشونه من صراع وتنافس، فقد قال حين اتهم بموالاته للإباضيين من المالكية، وللمالكية من الإباضية: ((أننا دعاة إصلاح واتحاد بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم وإننا ندين ــ قولا وعملا واعتقادا ــ بقوله تعالى: ((إنما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون))[2].

وبهذه السيرة كان ابن باديس، لا يعبر عن ظرفه وعصره فقط، بل إن رؤيته تلك، كانت رؤية مستقبلية ــ وما أحوجنا إليها اليوم ــ لأنه كان يتنبأ بما سيصل إليه الإسلام من تناحر وانحلال بين أبنائه وفق التمايز المذهبي والعقدي الموجود بينهم، الذي نتج، إما من النزاعات الداخلية، أو من الانحرافات التي أبعدتهم عن الكتاب والسنة، ولكن ذلك التناحر سيؤدي في النهاية إلى ضعفهم جميعا، فهو كان أكثر جرأة منا على تشخيص واقعه المتردي الذي تطبعه كثير من المفاسد، واتخاذ

---

(١) ابن باديس، الشهاب، ج٧، م ١٣، رجب ١٣٥٦هـ، سبتمبر ١٩٣٧.

(٢). المصدر نفسه.

مواقف واضحة منه، وهو بذلك قد سلك المنهج النقدي لتجديد الرؤية الدينية الرافضة للتعصب، والداعية للتسامح،حيث كان يقول: ((لأجل أن يقتلع الإسلام جذور الحقد الديني والتعصب على المخالف من قلوب اتباعه، ويزرع فيها التسامح، عرفهم أن اختلاف الأمم وتباينهم في نحلهم هو بمشيئة الله))[1]. فالتباين والاختلاف في هذا السياق، الذي تتولد عنه الخصوصية الفردية، هو عملية تركيبية لإكمال النقص الذي يظهر عند أحد الطرفين، في الشمولية والعمومية، وليس عملية للصراع والتنافس بين الخصوصيات الفردية.

كما أن من أولويات المبادىء الإسلامية التي كان يحث عليها هي إصلاح ذات البين بين المسلمين، ولعل هاته القاعدة هي التي كان ابن باديس نفسه يسعى للتمسك بها، والعمل بمقتضاها، وكان يعاوده الحنين إلى أيام ازدهار الحضارة الإسلامية التي حدث فيها انقطاع نظرا لما لحق بها، من ضعف، وانحطاط، نتيجة لعوامل مختلفة: داخلية وخارجية، لا يتسع مجال هذا البحث للتعرض إليها.

٢ ـ التسامح وحب الوطن

وقد كان ابن باديس يرى أن من نواميس الخليقة حب الذات للمحافظة على بقاء النوع، وأن كل ما شعرت النفس أنها في حاجة إليه، في بقائها، هو عزيز وحبيب إليها.ومن جملة ما يحبه الإنسان وطنه، الذي إذا ذكر كما يشير ابن باديس، حركت رنته أوتار القلوب، وهزت النفوس هزا، لأنه يجد فيه صورته وخيره وسعادته، وهو بيته الصغير، كما يجد ذاته في بيته الكبير الذي هو أمته، ويجدها

---

(١). المصدر السابق، ص ٤٨٧.

في الإنسانية كلها التي هي وطنه الأكبر، ولذلك كان على كل إنسان في هذا الوجود أن يلتزم بحبه وتسامحه مع كل الناس الآخرين الذين يعيشون معه في وطنه، أو في الأوطان الأخرى، الذين يقاسمونه نفس الشعور والإحساس، وذلك انطلاقا من قوله تعالى الذي خاطب البشرية جمعاء، ولم يفرق بينها على أساس الدين أو العرق، أو الانتماء، حيث قال: ((ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا))[1]، فالله سبحانه عز وجل، لم يميز هنا أمة عن أخرى، في الو جود وفي الحياة، ولذلك كان على الأمة التي تنتسب إلى هذا الدين أن تكون هي الأوْلى باحترامه وباحترام ما يدعو إليه، بمعنى أن تحب الشعوب والأمم الأخرى في أوطانها، انطلاقا من قوله تعالى: ((لكم دينكم ولي ديني))[2].

وانطلاقا من مبدأ حب الوطن في تصور ابن باديس هذا، جعله يرفض كل دعوة متعصبة للوطن، كما لاحظها في الدعوتين الهتلرية و البلشفية لأنهما كانتا مبنيتين على تعصب للوطن أعمى، وهو يتناقض مع كل قيم الإنسانية المبنية على التسامح، وحب الآخر، وفي ذلك قال: ((فلم يبق من وجه لرمينا بالبلشفية والدعاية البلشفية. ولكن هتلر اليوم هو لينين بالأمس، فلتكن الهتلرية هي الكرة التي ترمى بها الأمة المستضعفة.وهذا مما يدل دلالة واضحة على أن هذا الرمي بالهتلرية بعد البلشفية لم يكن عن جهل وإنما كان عن مكر وسوء قصد))[3].

---

(١). الإسراء، الآية ٧٠.

(٢) الكافرون، الآية ٦.

(٣) عمار الطالبي، ابن باديس ...ج٣، ص٢٤٣ ــ ٢٤٤.

لئن كان ابن باديس ـــ بناء على ما سبق ـــ يحثنا على خدمة وطننا الخاص الذي هو الجزائر، فليس معنى ذلك أن نخدمه على حساب غيره، ولا للإضرار بسواه، ولكن لننفعه وننفعها، يقول في هذا المعنى: ((نعم إننا نتحد لننفع أنفسنا، وننفع إذا استطعنا غيرنا. ومعاذ الله والإسلام أن نتّحد على أحد، أو نتّفق على باطل، أو نتعاون على إثم أو عدوان)) [1].

إن هذه هي روح ابن باديس التسامحية، فبالرغم مما كان يعاني منه شعبه ووطنه، إلا أنه مع ذلك كان يرى أن كل ما يسعى إليه لا يمكن إلا أن يكون في خدمة الذات وفي خدمة الآخر، لأن شعاره العام كان دائما هو: "حبْ وطنك ولا تبغض أوطان الناس، انفع وطنك ولا تضر أوطانا أخرى"، ولا يستطيع من هذا المبدأ أن: ((ينفع الناس من أهمل أمر نفسه. فعناية المرء بنفسه ـــ عقلا وروحا وبدنا ـــ لازمة له ليكون ذا أثر نافع في الناس على منازلهم منه في القرب والبعد، ومثل هذا كل شعب من شعوب البشر)) [2]، فالذي لا يقدم خيرا لوطنه ولمجتمعه، فلا خير يرجى منه للإنسانية جمعاء، ومن ثم كما يقول ابن باديس فلا: ((حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك، وجميل عاداتك، وإذا أردت الحياة لهذا كله فكن ابن وقتك، تسير مع العصر، الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة، وطرق المعاشرة والتعامل)) [3].

---

(١) نقلا عن: محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٣م، ص٥٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٥.

(٣) الشهاب، أوت ١٩٢٦م.

وفي هذا السياق، يؤكد ابن باديس: ((أن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا هي دائما منا على بال، ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لابد أن نكون قد خدمناها... وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى، اللذان ما هما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد... ثم الوطن العربي والإسلامي ثم وطن الإنسانية العام))[1]، ومن ثم كان حب الإنسانية عنده من حب الأوطان، والأوطان هي أجزاء مترابطة بعضها ببعض، وحب واحد منها يقتضي بالضرورة حب الأوطان الأخرى، فلا يمكن لمحب وطنه أن يكره الأوطان الأخرى، ولا يمكن لمن لا يحب وطنه أن يحب الأوطان الأخرى، ومن كره الأوطان كما قال ابن باديس كرهناه ومن أحبها حبيناه، إذ لا تناقض ولا تنافر في رأيه، بين حب الأوطان وحب الإنسانية.

وهكذا كان ابن باديس، يمقت الذين لا يعترفون إلا بأوطانهم الضيقة لتعصبهم وعدم تسامحهم، ويمقت في الوقت نفسه الذين يضرون الأوطان الأخرى في سبيل وطنهم الأكبر، فهؤلاء جميعا عنده شر وبلاء على الإنسانية.

٣ - التسامح مع الآخر، ونبذ التعصب

من المبادىء الأساسية التي تأسست عليها النهضة الإصلاحية الحديثة، التي قادها ابن باديس في جمعيته الإصلاحية، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو اعتبارها الإسلام هو دين البشرية وهو يدعو إلى: الأخوة الإسلامية بين جميع

---

(١) محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ص ١٧٢.

المسلمين، وبين البشر أجمعين، يسوي في: الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان.

كما أن هذا الدين يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاءون. ومن الأقوال المأثورة للإمام عبد الحميد بن باديس، قوله: ((أحذر من التعصب الجنسي (العرقي) الممقوت فإنه أكبر علامة من علامات الهمجية والانحطاط. كن أخا إنسانيا لكل جنس من أجناس البشر وخصوصا ابن جلدتك المتجنس بجنسية أخرى، فهو أخوك في الدم الأصلي على كل حال كن محسنا لكل أحد من كل جنس ودين فدينك الشريف يأمرك بالإحسان))[1] الذي هو دليل التسامح. وليس من باب المصادفة أن يتصف الإنسان العربي المسلم بهذه الصفات، في رأي ابن باديس، بل إن دينه وعقيدته الإسلامية هي التي تفرض عليه أن يحترم الإنسانية في جميع أجناسها، وأن يتسامح معها، دون أن يعني ذلك أن يتخلى عن آرائه واعتقاداته، أو أن تتخلى هي بدورها عن آرائها واعتقاداتها، وأن التساوي والاخوة بين جميع الأجناس، هي سمة للتمييز لا للتفضيل، وأتم التفاضل يكون فقط بالأعمال الصالحة [2]، وفي ذلك يقول ابن باديس: ((فليس الإسلام وحده دينا للبشرية، ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان، ولأوطان الإنسانية كلها حق على كل واحد من أبناء الإنسانية، ولكل دين من أديانها حقه من الاحترام))[3]،

---

(١) المرجع نفسه، ص١٦٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٣) محمد الطاهر فضلاء، قال الشيخ الرئيس...، ص١٤٠.

فالإسلام يعترف بالأديان الأخرى، ويحترمها ويسلم أمر التصرف لأهلها، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ((لا إكراه في الدين، فقد تبين الرشد من الغي))[1].

وفي هذا السياق يقول محمد عمارة أن موقف: ((الإسلام من أهل الكتاب يتعدى التسليم بحقهم في حرية العقيدة والضمير ... النابعة من طبيعة "الإيمان" باعتباره تصديقا قلبيا ويقينا داخليا لا يمكن تحصيله بغير الاقتناع الحر، ويستحيل الحصول عليه بالإكراه، يتعدى الإسلام هذا الموقف، ويرتقي فوقه إلى حيث يقرر وحدة الدين الإلهي))[2]، وقوله صلى الله عليه وسلم أيضا، في حجة الوداع: ((يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى...))[3]، فالله عز وجل لا ينظر إلى وجوه الناس، بل إلى أفعالهم وأعمالهم، وقد أكد هذه الخاصية في الدين الإسلامي، وتميزه بها عن الديانات الأخرى، روجيه غارودي، الذي كان شاهدا على تسامح الإسلام، مع المسيحيين، وذلك حين قال: ((إن علاقات المسيحية بالإسلام ليست علاقات متناظرة، فقد كان الإسلام أقل تعصبا: القرآن يجلّ (يسوع)، بينما يقصي (دانتي) في "الكوميديا الإلهية" (محمدا) إلى الجحيم

---

(١) البقرة، الآية ٢٥٦.

(٢) محمد عمارة، العرب والتحدي، عالم المعرفة، مجلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، رجب ١٤٠٠ هـ، مايو ١٩٨٠م، ص٨٠.

(٣) الإمام أحمد، المسند، مؤسسة قرطبة، مصر، ج٥، ص٤١١.

مع اتباعه))[1]، ورغم بعض هذه المواقف الغربية من الإسلام إلا أنه، كما يقول غوستاف لوبون [2]، أن العالم اليوم لا يعرف غير دين أتباع النبي [محمد]، ولغتهم في البلاد الممتدة من المحيط الأطلنطي إلى السند، ومن البحر المتوسط إلى الصحراء.

فالإسلام كما هو معروف لا يدعو إلى الحروب الدينية ولا يتعصب لها، فقد قال، صلى الله عليه وسلم: ((ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية))[3]، فهو يدعو إلى العدل، والمساواة، والأخوة، والتسامح مع العدو والصديق، في إطار ما تسمح به العلاقات الإنسانية، لأنه كما يقول ابن باديس، جاء: ((الإسلام ينشر راية التسامح العام ويقلع جذور التعصب الديني من قلوب متبعيه ويكفهم عن التعصب على المخالف لهم في الدين))[4]، ومن ثمة كان الإسلام يسعى دائما إلى وحدة الأمة والجماعة كما يهدف في الوقت نفسه إلى وحدة الأجناس والشعوب وعلى التقريب بين العناصر الاجتماعية المتضادة[5] مما يؤدي إلى التقاء تلك الأمم، وتجنب الخلافات وإراقة الدماء بينها، وفي ذلك يقول ابن باديس: ((إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها والحدب عليها في جميع أوطانها واحترامها في

---

(١) روجيه غارودي، حوار الحضارات، ترجمة د. عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، ط١، ١٩٧٨م، ص١٢٨.

(٢) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٥٦٤.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) عمار الطالبي، ابن باديس ... ج٣، ص ٤٨٨.

(٥) محمد جابر الأنصاري، تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ١٩٣٠ ـ ١٩٧٠م، عالم المعرفة، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ذو الحجة ١٤٠٠هـ، نوفمبر ١٩٨٠م، ص٢٠٠.

جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها، هو ما نقصده ونرمي إليه، ونعمل على تربيتنا وتربية من إلينا عليه))[1].

ألا يدل معنى هذا القول على سمو التفكير الحضاري عند ابن باديس؟ لأن عباراته السابقة تؤكد شعوره العميق بما تحس به الشعوب وما تقرره الأديان ؟ ألسنا أولى من غيرنا بأن يكون عندنا هذا الحس الحضاري ؟ ألم نكن أمة لنا امتداد في التاريخ ؟ وكانت المسميات تسمى بأسمائنا ؟ ألسنا أمة لنا دين يحثنا على الإحسان والتسامح والمحبة بين أبناء البشر؟ أم أن ذلك كان زمان الوحي والمعجزة ؟ ألم يستمد ابن باديس مظاهر تفكيره من دينه وتاريخه الذي يحترم الإنسانية جمعاء ويكرمها ؟ ألم يقل القرآن الكريم ــ دين ابن باديس ــ: ((ولقد كرمنا بني آدم))[2]؟ ألا يدل هذا المعنى القرآني على أن الإنسانية جمعاء ــ دون استثناء ــ هي من أصل واحد؟ ومن طبيعة واحدة؟ ألم يستمد ابن باديس رؤيته من هذا الدين حين قال: ((علمنا أنه دين الإنسانية ... فإذا عشت له فإني أعيش للإنسانية خيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها، وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها))[3].

وعلى هذا، يبدو أن ابن باديس، قد ألزم نفسه، على أن يزرع التسامح والمحبة والأخوة بين الناس جميعا من دون تمييز أو استثناء، على أساس، الدين، أو المذهب، أو العرق، وإنما كما يقول، على: ((أساس من العدل والإنصاف والاحترام، مع كل أحد من أي جنس كان ومن أي دين كان، فاعملوا للأخوة

---

(١) الشهاب، ج٣، م١٢، جوان ١٩٣٦م، ص ١٠٧.

(٢) الإسراء، الآية٧٠.

(٣) عمار الطالبي، النزعة الإنسانية والجمالية عند ابن باديس، مجلة الفكر، ص٩٤.

ولكن مع من يعمل للاخوة، فبذلك تكون الاخوة صادقة))[1]، مشيرا في هذا النص إلى مبدأ الصدق في التسامح والأخوة، لأنه كان صادقا فيما يقول وما يدعو إليه.

وهذا هو المنهج الذي سلكه مع الشعب الفرنسي نفسه، ولا أقول الحكومة الفرنسية التي كان يعتبرها استعمارية، حيث أكد: ((إن شعبين متباينين ربطت أوضاع الحياة الجارية بينهما، لا أحسن لهما من أن يتفاهما ويتكارما ويتناصفا ويتآلفا، ومفتاح ذلك أن يتعلم كل منهما لغة صاحبه. هذا ما نقوله نحن الذين نريد الوئام والسلام))[2].

ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى رأي ابن باديس في الحضارة الغربية المعاصرة، لتي كان يقف منها موقف الناقد المصحح، في بعض جوانبها ومظاهرها[3]، لأنها كانت من وجهة نظره، تغذي الصراع بين الغرب المسيحي، والشرق الإسلامي، الذي يجب من خلاله إزالة هذه المعاني المرتبطة بالسمو والانحطاط بين الأمم، وإنما يجب أن يرتبط فقط بالموقع الجغرافي الذي تستوطنه تلك الأمم، وهو الصراع الذي أشعلت فتيله الحروب الصليبية من قبل، هي الحروب التي كانت ترى في الدين الإسلامي كعقيدة، أنه مناهض للعقيدة المسيحية وخطر عليها. لعل ـ

---

(١) الشهاب، ج٧، م١٥، أوت ١٩٣٩م، ص٣٤٦.

(٢) محمد الطاهر فضلاء، من أقوال الشيخ الرئيس ...، ص٢٩٥.

(٣) إسماعيل زروخي، موقف ابن باديس من الحضارة الغربية، محاضرة ألقيت في الملتقى الدولي الذي نظم في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، بعنوان:ابن باديس وثقافة السلم، أيام١٦، ١٧، ١٨، أفريل ٢٠٠٠.

اعتراف البابا[1] ـــ مؤخرا واعتذاره للشعوب التي عانت من تلك الحروب، إلا دليل على مصداقية ما كان يراه ابن باديس في ذلك، ودليل أيضا على معاناة شعوب الشرق والغرب من ويلات الحروب الصليبية، وما غرسته من كراهية وحقد بين تلك الشعوب.

لقد كانت تمارس تلك الحروب باسم العقائد السماوية إلا أنها في جوهرها بعيدة كل البعد عن نواميس الأديان ومضامينها، ومع ذلك فإن الكنيسة في تلك المرحلة الحضارية ـــ مرحلة ابن باديس ـــ كانت تقوم بدعاية واسعة من أجل التفرقة بين الشعوب عبر عمليات التنصير أي:على أساس العقيدة، وفي نفس الوقت كانت تشعل لهيب الحقد الديني بين المسلمين كقوم مسالمين مستضعفين[2]، وبين المسيحيين.

وكانت الكنيسة في رأي ابن باديس، انطلاقا من دورها هذا، تقوم بدور دعائي فعال، في تقوية الاستعمار وتوسعه، وهذا مخالف للأصول الحقيقية للملة المسيحية نفسها التي تدعو في جوهرها إلى الأخوة والمحبة، والتعاون والتضامن، والتعاضد، والتسامح.

ورغم ذلك فإن ابن باديس كان يحث المسلمين، على أن من واجبهم أن ينظروا إلى هذا التمايز بين المسيحية الحقيقية، وبين الدعوة التي كانت تقودها الكنيسة باسمها، لأن معرفة المسلمين بهذا التمايز يفرض عليهم أن يكونوا متسامحين مع المسيحيين الحقيقيين وعدم مناهضتهم لهم، وأن يعيشوا معهم وفق ما تقتضيه

---

(١) في الزيارة التاريخية التي قام بها إلى الشرق الأوسط في السنة الماضية.

(٢) عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج٣، ص ٤٩٣.

تعاليم المسيحية والإسلام معا، اللذان لا يتعارضان في أصولهما المتعلقة بـ"الوحدانية"، والعمل وفق هذا المبدأ هو الذي يجسد المبادىء الإسلامية الحقيقية التي لا تتعارض مع المسيحية، وهذا ما يحرر عقل الإنسان المسلم في الوقت نفسه مما أصبح يطبع كيانه من تعصب، وجمود وركود، واتكال على ما أبدعه الأولون وأنجزوه، وهكذا يجب ـ في رأيه ـ أن نعود إلى ذواتنا ونفيق من سباتنا، ونربط صلتنا بكل من يقاسمنا الوجود في هذا الكون، حتى أنه قال: ((وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لا عنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم))[1].

إن الإنسان المسلم حقيقة متشبع أساسا بثقافة التسامح من طبيعة عقيدته الإسلامية، من ثم يمكنه أن يؤسس ثقافة التسامح في الآخرين، ويساهم في حل تلك المشكلات التي تعاني منها الحضارة الإنسانية المعاصرة، وذلك بصياغة عناصر وأدوات حضارته وتراثه لتتلاءم مع العصر الراهن، ومن ثم يحدث التواصل والاستمرارية مع ذاته، وطموحاته، وتزيل عنه صفة الاغتراب والتوحش المنافي لكل ثقافة، وهذا التوحش، هو الذي حذرنا منه ابن باديس، حين قال: ((أحذر من التوحش فإن التوحش في عصر المدنية محكوم عليه طبيعيا بالتناقض ثم الفناء والاضمحلال والاندثار، كما فنيت جميع الأمم المتباعدة عن التمدن والرقي))[2].

من هذا الموقف ندرك أن ابن باديس كان يميز بين الغرب كاستعمار، قادته الكنيسة في فترة من الفترات باسم الحروب الصليبية، وبين الغرب كعقيدة. ومن ثمة

---

(١).المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢).المصدر السابق، ج٣، ص١٧٩.

وجب على الإنسان العربي المسلم أن يناهض ويناقض غرب الاستعمار، لا غـرب العقيدة، وهذه الدعوة الباديسية تعتبر في رأينا أكبر دعوة دينية تنويرية في عصـره، لأنه رغم ما كان يعيشه من ويلات في ظل الغرب الاستعماري، إلا أنه كان يحتـرم جوهر العقيدة المسيحية.

ولذلك فإن دعوته بوجه عام، هي تلك التي وصفها بنفسـه، قـائلا: ((لا يخشاها النصراني لنصرانيته، ولا اليهودي ليهوديته ولا المجوسي لمجوسيته))، ولكـن هي التي كما يقول يجب والله: ((أن يخشاها الظالم لظلمه والدجال لدجله والخـائن لخيانته)) [1].

إضافة إلى ذلك فقد كان ابن باديس يرى أن العمل وفق مبدأ التسامح وإزالة التعصب الديني، هو سمة إسلامية، مخالف لما كانت تدعو إليه المسـيحية الممثلـة في الكنيسة، التي كانت كل هيئاتها تسيء إلى الإسلام، والتي كان يقول بشأنها: ((أمـا الهيئات الدينية النصرانية فإن لكل هيئة منها مجلتها الخاصة ويكاد لا يخلو عدد منها من الكلام عن الإسلام وتصويره بالصورة المنفرة البغيضة المثيرة للأحقاد)) [2].

إن هذه الدعوة المسيحية كما يراها ابن باديس، وإن كانت من الهيئات المعبرة عن النصرانية، إلا أنه من واجب المسلمين أن يقابلوا تلك الدعوات الحاقدة بـاللين والتسامح لأنهم كما يقول أمة: ((تعتصم بالحق، وتعتصم بالتواضع عندما نقول أننا شعب خالد ككثير من الشعوب، ولكننا ننصف التاريخ إذا قلنا أننا سبقناها بهدايتنا، وسبقنا هذه الأمم في نشر الحق أيام كانت في ظلمات الجهل، ذلك ما كنا فيه ومـا

---

(١) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٢) المصدر السابق، ج٤، ص ٣٢١.

سنعود إليه، وإنما علينا أن نعرف تاريخنا ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة في هذا الوجود))[1]، وهذا المبدأ هو سمة المسلمين، سواء كانوا جزائريين أم غير جزائريين، وسمة الوطنية عند كل مواطن صالح صادق في إسلامه ووطنيته.

إننا اليوم وإن كنا نهتم بابن باديس كتاريخ فإن ذلك كان من صيحاته التي تحث على الاهتمام بالتاريخ لأنه هو أساس إثبات الكينونة والوجود، وهو الذي تتفاخر به الأمم بعضها عن بعض.

إن ابن باديس كان يحث الإنسان العربي المسلم على التميز بهذه الصفات والخصائص ــ المشار إليها ــ والعمل والتمسك بها، لأنها من وجهة نظره، ليست من الأمور الاصطناعية في كيان الإنسان العربي المسلم، وإنما هي صفات طبيعية موجودة في ذاتيته وفي جوهره، ومن ثم فإن العمل بها والسعي إلى الاتصاف بها، ليس من باب التقليد ولا من باب التملق وإنما هي أمور طبيعية، وإذا كانت هذه صفات الإنسان العربي المسلم فهي أيضا من تشريعات دينه الإسلامي، دين الحق والعدالة، والإنسانية، الذي لا يدعو إلى الاستغلال والاضطهاد للشعوب الأخرى ومحوها من الوجود، فقد قال: ((نحن ــ كمسلمين ــ لا يضيق صدرنا بأن نرى أهل كل دين يحتفلون بطقوس دينهم ويظهرون تمسكهم بعقيدتهم، ويدعون إليه بكل وجه شريف نزيه بل نود أن يقع التفاهم بين أهل الملل على أصل التدين. ليقع التعاون على نشر، أصول الخير والإحسان التي تتفق عليها جميع الملل وعلى مقاومة الشر والظلم والإلحاد المحرمة عند الجميع))[2]، وذلك عكس ما تقوم به الشعوب

---

(١) المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٥٧.

(٢) محمد الطاهر فضلاء، من أقوال الشيخ الرئيس ...، ص٢٩٥.

الغربية الاستعمارية، التي جاء على لسان أحد مواطنيها، وهو "لا فيجري"حين قال في احتفال فرنسا بمرور قرن على احتلال الجزائر، أن: ((عهد الهلال في الجزائر قد غبر، وأن عهد الصليب قد بدأ، وأنه سيستمر إلى الأبد ... وأن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل))[1]، وذلك بالرغم من أن الفرنسيين كان قد حثهم "فولتير" في القرن الثامن عشر على ضرورة التسامح إزاء المعتقدات الدينية، وضرورة تغيير أسلوب حياتهم لما كان ينطوي عليه من تزمت وتعصب.

فالمسيحيون الاستعماريون لا يريدون في الحقيقة القضاء على الشعوب والأمم التي يستعمرونها فقط، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك. فهم يهدفون إلى القضاء حتى على عقيدتها ويمحون كل أثر لوجودها، وذلك مخالف للعقل وللدين معا، اللذان استخدمهما ابن باديس حتى أصبح العقل هو الحاكم لا المحكوم عليه، والنص الديني خاضع لمنطقه واستراتيجيته.

ومن صور التعاون والتسامح بين المسلمين والمسيحيين ما تضمنه بيان "قرطبة" المنبثق عن الملتقى الإسلامي المسيحي، المنعقد بتاريخ ٢٣ ـ ٢٨ شعبان ١٣٩٤هـ الموافق ١٠ ـ ١٥ سبتمبر ١٩٧٤م، الذي دعا إلى مناشدة المسلمين والمسيحيين بأن يعنى كل منهم بنشر عقائده بين أتباعه، والإهابة بالهيئات الدينية الإسلامية والمسيحية، أن ترعى الوسائل الإعلامية والتعليمية والثقافية والفنية، حتى

---

(١) محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠، ص ١١.

لا يتسرب منها إلى المجموعتين ما يفسد خططها وأهدافها، من تعميق الروح الـديني وتمكينه[1].

ثانيًا: الحضارة

لا نحاول في هذا العنصر التطرق إلى الحضارة من حيث معانيها الاصطلاحية، وضبطها لأن ذلك ليس هدفنا في هذا البحث، وإنما نتعرض فقـط إلى المصـطلح، باعتباره ذا علاقة أساسية بالعناصر التي ترتبط بموضوع بحثنا، والتي يتشكل علـى ضوئها التفاعل والحوار الحضاري بين الأمم، على اعتبار أن الحضارة هـي ذلـك التقدم العقلي والمادي معا، وهي ذات طابع اجتماعي، إنساني[2]. لأنها تتعلق بتطوير الإنسان لمجموع الشروط المادية والثقافية التي يعيشها، ومن ثم فهـي عبـارة عـن مجموعة الخصائص المرتبطة بحياته الاجتماعية والأخلاقية و السياسية والثقافية[3].ونحن نعتقد أن من بين المحاولات النظرية التأصيلية الأولى التي تناولت الموضوع ياسـهاب في التراث الفكري العربي الإسلامي، وحاولت ضبط مضمونه الاصطلاحي، هـي محاولة ابن خلدون، التي عرف فيها الحضارة، بقوله، هي: ((تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المترل وأحواله))[4]، ولذلك كانت هذه المظاهر الحضارية تنتقل من أمة

---

(١). الأصالة، العدد ٢٣، ١٩٧٥م، تصدر عن وزارة الشؤون الدينية بالجزائر، ص٢٤٢.

(٢). جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج١، ص٤٧٧.

(3). Encyclopedie Klio larousse Multimedia

(٤). ابن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائـر، ١٩٨٤م، ج١، ص٢٢٣.

إلى أخرى، تقوم بتقليدها فيها، وهذا، كما يؤكد ابن خلدون، ما وقع للعرب عند احتكاكهم بالأمم السابقة، كالفرس والروم، وما وقع لكثير من الأمم الأخرى في صيرورتها التاريخية، ومن هنا يصعب علينا من الناحية الاصطلاحية الفصل بين مصطلح الحضارة،وباقي المصطلحات الأخرى، المشابهة لها، كالنهضة والتقدم والتطور، أما إذا حاولنا القيام بذلك، فإنها ستواجهنا صعوبة أكثر تعقيدا مما هو عليه المصطلح الآن، إلا أن المظهر الذي تشترك فيه هذه المصطلحات كلها ويجسدها، هي ارتباطها بالإنسان، ومن ثم كانت الحضارة لا تخرج عن "الإنسان" ومعارفه وعلومه.

إن الحضارة بهذه المظاهر التي سنبينها ــ فيما بعد ــ كما رصدها ابن باديس، وكما تجلت له في كثير من المظاهر والمجالات:الدينية والأخلاقية والعلمية، ما هي إلا تجسيدا لمصلحة إنسانية مشتركة، رغم الفوارق الموجودة بينها، وكانت البشرية على ضوء هذه المصلحة مطالبة بالتخلي عن صراعاتها وخلافاتها، وعن أنانيتها، وتعمل في وحدة واحدة تتعاون فيها من أجل هدفها المشترك، وكلما استطاعت تحقيق ذلك، اقتربت من نطاق الكمال الإنساني.

١ - دور الدين في البناء الحضاري

لقد أكد الإسلام على أن هناك تنوع وتعدد في الأمم والشعوب، وكذلك في الأديان والاعتقادات، ولكن ذلك لا يعني تنافرا وصراعا، وإنما يعني تكاملا وتعاونا بينها، لأن من قدرته تعالى خلق البشر مختلفون ومتنوعون، حيث جاء في قوله تعالى: ((ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك،

ولذلك خلقهم))[1]، ورغم ذلك فإنهم متوحدون، ويقرون بمبدأ التوحيد الذي يكتنفهم، وفي ذلك كان ابن باديس يرى أن أي بناء حضاري لايمكن أن يستحق هذا الاسم المتميز إلا إذا كان مبني على بعد ديني صحيح، يتغير فيه مفهوم الدين السائد، الذي أصبح لا يعبر عن معاني ومفاهيم الدين الأساسية، ومن ثم ضرورة العودة إلى الدين السلفي الصحيح الخالي من كل الانحرافات والشوائب، التي ألصقتها به الطرق الصوفية وشوهت أصوله بافتاءاتها وآرائها المتحيزة للاستعمار، وبنشرها للخرافات والدروشة لجلب العامة إلى صفها.وقد كانت الطرق الصوفية عند ابن باديس، تعني جماعات الربط، والزوايا الصوفية، فكان يحاربها، اعتمادا على المنهج القرآني، الذي يؤكد مجادلتهم بالتي هي أحسن، لقوله تعالى: ((ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن))[2].فالوعظ والإرشاد أسلوب من أساليب الدعوة الإسلامية، وركن عظيم من أركان الإسلام، ووسيلة حضارية أحسن ابن باديس اختيارها[3] في عمله الإصلاحي.

كما تصدى ابن باديس لمحاربة أصحاب العقليات المتحجرة الذين يتأولون بعض آيات القرآن، وأصول الدين، وتكييف ذلك لتوجهاتهم ومتطلباتهم، ومن ثم كان سعي ابن باديس يتركز في تنقية العقيدة الإسلامية في الجزائر من كل تلك الشوائب

---

(١). هود، الآية ١١٨، ١١٩.

(٢). النحل، الآية ١٢٥.

(٣). محمد زرمان، من معالم التغيير الحضاري عند ابن باديس، الموافقات، مجلة علمية محكمة، تصدر عن المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر، العدد٦، ١٤١٨هـ، (١٩٩٧ — ١٩٩٨م)، ص٤٥٤، ٤٥٦.

والانحرافات التي لحقت بها، لأنه كان يرى في الحقيقة الدينية إصلاحا اجتماعيا يعبر عن توجهات الإنسانية جمعاء.وفي هذا الصدد يقول ابن باديس: ((إن الإسلام الذي ندين به (...) هو دين جامع لكل ما يحتاج إليه البشر أفرادا وجماعات لصلاح حالهم ومآلهم، فهو دين لتنوير العقول وتزكية النفوس وتصحيح العقائد وتقويم الأعمال. فيكمل الإنسانية وينظم الإجماع ويشيد العمران ويقيم ميزان العدل وينشر الإحسان))[1]، فالمسلمون في رأيه، هم أفضل الأمم بالإسلام الذي يدعوهم إلى: ((التمسك بأخلاق الإسلام وآداب الإسلام وإحسان الإسلام. إذ في ذلك سعادتهم وسعادة البشرية كلها معهم))[2]، وبهذه السمة الأخلاقية والحضارية يتحدد بعد الدين الأخلاقي، لأن: ((الظاهرة الدينية عند ابن باديس ترتبط بالحياة الاجتماعية، بل وأن الإصلاح عنده لابد وأن ينطلق من هذه النقطة، إذ أن إصلاح الروح يؤول بالضرورة إلى إصلاح هيكلها))[3].

إن الدين الإسلامي بنصوصه ومكوناته ومحاوره، وضوابطه الصارمة، وتركيباته العضوية والوظيفية، من وجهة نظرِ ابن باديس، قادر على حمل لواء الحضارة الإنسانية وتطويرها، لأنه حقق قبل اليوم ازدهارا حضاريا شمل كل الإنسانية، عندما كان المسلمون محافظون على الدين، وعاملون بأحكامه ونصوصه، لأن الدين كما عبر عنه، ابن باديس، هو: ((عقد اجتماعي عام فيه جميع ما يحتاج

---

(١) عمار الطالبي، ابن باديس ...، ج٣، ص ٣٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٧٩.

(٣) حمودة سعيدي، مكانة الأفكار في الفلسفة الاجتماعية عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر (مخطوط) ص٦٣.

إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة، لسعادته ورقيه، وقد دلت تجارب الحياة كثيرا من علماء الأمم المتمدنة، على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام، على مبادىء الإسلام (...) فالمسلم الفقيه في الإسلام غني به عن كل مذهب من مذاهب الحياة))[1].

ولذلك فإن أقرب الوسائل وأفيدها وأنجعها للأمة الإسلامية على وجه العموم، والجزائرية، على وجه الخصوص، حسب، ابن باديس، لبناء الحضارة، والتطلع إليها، هو: ((دينها الذي اطمأنت له قلوبها وانقادت له نفوسها وذلك هو الإسلام الذي بني على تحرير العقول وإنارتها، وتزكية النفوس وترقيتها، وتقويم الأعمال وتنظيمها))[2].وبهذه الرؤية استطاع ابن باديس أن يحدث عملية إخصاب بين النص الشرعي والواقع المعيش، واكتشاف إجابات جديدة للتحديات المعاصرة[3].

فالدين في ذاته ــ في رأي ابن باديس ــ هو تعبير عن الحضارة، بما أنه يؤدي إلى تركيب وصياغة مجموعة من القيم الاجتماعية التي تشكل بعدا اجتماعيا وأخلاقيا للحياة الإنسانية.وهكذا يتحقق البعد الحضاري للدين، لأن الدين عندما يكون في مرحلة نموه وتطوره الصحيح يولد الفضائل الإنسانية، التي تنبذ الفردية والأنانية، وهي القيم التي تكون هدف الحضارة الصحيحة ذاتها، ذلك أنه عندما يتدخل "المركب الديني" فإنه يبث في العناصر المؤدية إلى البناء الحضاري الحيوية والنشاط والحركة، وبها يخرج الإنسان من حالة الطبيعة ويندفع بطاقة حيوية بعد أن

---

(١) محمد الطاهر فضلاء، قال الشيخ الرئيس...، ص١٦٤، ١٦٥.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥١.

(٣) محمد زرمان، من معالم التغيير الحضاري عند ابن باديس، ص٤٦٢.

تكون الفكرة الدينية قد ضبطت غرائزه الفطرية والحيوية الحيوانية الكامنة في طبيعته وأخضعتها لقانون أخلاقي سام، ودقيق للفرد والمجتمع، وهنا تصمت "الغريزة" ويخضع الكل لقانون (الروح) الذي يولد النهضة والتقدم والحضارة[1]، وهذا إذا كان واضحا على مستوى الحضارة التي نشأت في ظل الإسلام، فإنها أيضا هي نفسها التي ولدت الحضارة الغربية، ومن هنا وجب تغيير الأخلاق السائدة وتفكيكها، لبلوغ الأخلاق الحضارية الجديدة، والتغيير في الأخلاق ممكن، لأنه كما يقول الغزالي: ((لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير، لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "حسنوا أخلاقكم" وكيف ينكر هذا في حق الآدمي، وتغيير خلق البهيمة ممكن))[2].

وعموما، فمن مظاهر الدين الحضارية، ووظائفه الأساسية، توليده لأنماط من العلاقات الاجتماعية والأخلاقية المتميزة، وهو ما يتسم به الدين الإسلامي، الذي تهدف مبادىءه إلى الازدهار الاجتماعي والأخلاقي للمجتمعات. وقد جسد الدين الإسلامي هذا الازدهار، خلال انتشاره في كثير من أصقاع العالم، ولازالت معالمه إلى اليوم دالة عليه في أكثر من مكان، ولم ينتشر الإسلام، بالقوة، والقهر، ولا بالتبشير ــ كما يزعم البعض ــ وإنما: ((انتشر ووطد دعائمه في أنحاء عديدة من إفريقيا السوداء وجنوب شرق آسيا، لا بالسيف والقهر، ولاحتى بالتبشير والدعوة،

---

(١) فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط٢، ١٩٨١م، ص٤١٤.

(٢) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، ج٣، ص١٨٠

وإنما بفضل سماحة خلق التجار المسلمين الوافدين إلى تلك المناطق للتجارة، وأمانتهم ورفقهم ودماثة طبعهم ووقارهم، مما دفع الناس إلى الإقبال على سؤالهم عن تعاليم دينهم، ثم اعتناق هذا الدين الذي كان له الفضل الأكبر في غرس هذه الفضائل))[1].

تلك الفضائل التي تحقق الخير البشري، والمدنية الحقة في هذا الوجود، إذ جاء في الأثر: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))[2] أليس المراد من هذا الحديث هو دعوة إلى الحضارة عينها التي ينشدها كل إنسان، ويسعى للوصول إليها، في هذا الوجود؟ ألم تكن تلك هي التعاليم الإسلامية التي بشربها، ودعا إليها رسول البشرية عليه الصلاة والسلام؟.

كذلك فمن مظاهر الدين الإسلامي، تعاليمه الأخلاقية، فهو حين يدعو معتنقيه بالتميز عن غيرهم فإن ذلك يكون على أساس أخلاقي لا غير، إذ جاء في قوله تعالى: ((كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر))[3]، فالأخلاق الدينية التوحيدية، تهدف إلى تحقيق سعادة الإنسان، بقدر ما تهدف إلى رعاية مصالح الآخرين، أي أن هناك تداخل هام ومعقد بين روح الدين الأخلاقية، وروح الحضارة.

إنه لكي يؤدي الدين دوره الحضاري، ويكون له بعدا إنسانيا، ينبغي أن يبتعد الفرد عن كل تعصب، ومنافاة للآخر، لأن ذلك يضر بالآخر وبدينه، كما يضر

---

(١) حسين أحمد أمين، سماحة الإسلام، العربي، العدد ٤٥٩، فبراير ١٩٩٧م، ص ٤٤.

(٢) رواه البخاري.

(٣) آل عمران، ١١٠.

بالفرد ذاته، ويبتعد به عن الحضارة وعن قيمها، ولعل ذلك مـا تحـاول الحضـارة الأوربية في بعض جوانبها حمله، وذلك ما أكدته "هونكه" حين قالت: ((إن موقـف أوربا من العرب منذ نزول الوحي المحمدي موقف عدائي بعيد كـل البعـد عـن الإنصاف والعدالة، والتاريخ وقتذاك كان يملي ويصنع، والمملى لم يكن الضمير بـل التعصب الأعمى. إن مثل هذا الوضع كان مفهوما في عصر كان فيه الشعور السائد هو إغماط حق كل فرد يخالف الأوربيين عقائديا، ومما يؤسف له حقا أن هذه النظرة القديمة التي كان مبعثها الظن في أن الاعتراف للعربي بالفضل خطر يهـدد العقيـدة المسيحية))[1]، كما آن لنا في هذا الصدد أن نقول إذا كان هذا أيضا هو مظهـر ـــ بعض المسلمين ـــ فإنه يكون خطرا عليهم وعلى الإسلام، لذلك يجب أن يعتمـدوا على عناصر الدين الحقة التي ترفض هذه المظاهر كلها، لأن تاريخ اضطهاد الأديان لا يوحي لنا عبر الأزمنة والعصور، بأن تلك الاضطهادات استطاعت أن تقضي على دين من تلك الأديان.

٢ ـ العلم ودوره في البناء الحضاري.

يرى ابن باديس أنه لا قيام لأية حضارة إلا بالعلم، سواء كان ديني أو دنيوي، فهو القاعدة الأساسية لكل إصلاح للإنسان، فالإنسان عنده يكون بـالعلم أهـلا للكمال الإنساني[2]، فهو المبدأ الأمثل والأنسب لتوحيد البشرية من أي مـذهب أو مبدأ آخر، لذلك حثنا الدين الإسلامي على تمثله والسعي من أجله، بكل الطـرق

---

(١) زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص، ب، ج.

(٢) منى أبو زيد، المنهج الإصلاحي عند الإمام عبد الحميد بن باديس، مجلة الجمعيـة الفلسـفية المصرية، مصر، العدد ٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، ص٢٠٤.

والوسائل المؤدية إليه، سواء عن طريق التفكير والتأمل، أو عن طريق التجربة والملاحظة والمشاهدة، وليس ذلك لأمة الإسلام فحسب، بل لكل الأمم، إذ جاء في قوله تعالى: ((قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون))[1].

ومن هذا المبدأ، يقول ابن باديس: ((نحن معشر المسلمين نؤمن إيمانا دينيا بأن العلم حق مشاع لجميع البشر، وأن التعلم من حق كل إنسان، من قول ربنا:"علم الإنسان ما لم يعلم" (...) كما نؤمن بأن اللغات البشرية كلها محترمة وأنها من آيات الله، من قول ربنا: "ومن آياته اختلاف ألسنتكم"))[2]، ومن ثمة فلا حدود، ولا حواجز، ولا فواصل في العلم، إذ فيه تتوحد الروح البشرية وتتضامن، وتاريخ الإسلام يبرز لنا أنه لم يعاد أية لغة من اللغات ولا احتكر العلم ووسائله، ولا عارض أحدا في طلبه، ولذلك كما يقول ابن باديس: ((كانت ممالكنا الإسلامية ومازالت تتعاون مع جميع الأمم في نشر العلم فتبذل العلم لكل راغب وتطلبه من كل واجد، وقد عاش أحبار الأمم ورهبانها وعلماؤها يعلمون أممهم ما يشاؤون من ألسنتهم وعلومهم تحت ظل الممالك الإسلامية ولا يلقون إلا التعظيم والاحترام الذي يستحقه المعلم في نظر الإسلام))[3] ولذا فإن على البشرية جمعاء مهما كان دينها وجنسها ووطنها أن تتعاون على التحصيل العلمي في البناء الحضاري، وكان ابن باديس يحثنا أنه لكي نلتحق بأوربا وحضارتها لابد علينا أن نبدأ من حيث انتهت، أي بالاعتماد على المعرفة التي أوصلتها إلى ما هي عليه اليوم وهي "العلم".

---

(١) الزمر، الآية ٩.

(٢) محمد الطاهر فضلاء، قال الشيخ الرئيس... ص٢٣٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٣٣، ٢٣٤.

ومن هذا المنطلق فإن الحضارة في بعدها الفكري لم تعد تقتصر على مجتمع معين، وإنما أصبحت من اهتمامات وأولويات كل البشر حيثما كانوا، وحيثما وجدوا، وأن هذا المستوى من التعاون الحضاري لا يعني تعاونا في الأشياء التي تلي منتجات الحضارة، وإنما يعني التعاون في الأفكار التي تؤسسها، أو بعبارة أخرى في فاعلية الأفكار كأداة وكمنهج عملي، تحدد أهدافها ووظائفها وغاياتها، وصالحة لأن تحقق تلك الغاية التي بنيت على أساسها، وليست تلك الأفكار المجردة من الفاعلية، وهذا يتطلب ضمنيا تعاونا أخلاقيا. على هذا المستوى فإن عظمة أية أمة، لا يمكن أن تجد لوجودها مكانا إلا إذا كانت لها أفكار تتبناها وتدافع عنها، وتستطيع أن تعطيها هبة بين الأمم.

فالعلم وحده هو الذي يؤدي إلى التفاضل بين الأمم بعضها عن بعض، وكان بناء على ذلك ابن باديس يحث الشباب الجزائري على الأخذ بالعلم بأي لسان كان وعن أي شخص وجد، لأن الأمم عرفت في تاريخها الطويل، أنها: ((لا تنهض إلا على صوت علمائها، فهو الذي يحل الأفكار من عقلها. ويزيل عن الأبصار غشاوتها، ويبعث الهمم من مراقدها، ويدفع بالأمم إلى التقدم في جميع نواحي الحياة))[1] ولذلك، كما قال: ((فأرجوكم أيها الشبان الحازمون أن تأخذوا العلم بأي لسان كان وعن أي شخص وجدتموه وأن تطبعوه بطابعنا، لننتفع به الانتفاع المطلوب، كما أخذه الأوربيون من أجدادنا وطبعوه بطابعهم النصراني وانتفعوا به، وهم إذا أنكر بعضهم اليوم فضلنا عليهم فذلك شأنهم، أما نحن فلا ننكر فضل من

---

(١). المصدر نفسه، ص ١٦٣.

أسدى إلينا الخير الخالص، ونعترف له بالجميل الذي لا يراد به سوى الجميل))[1].

وقد أكد حقيقة هذا التأثر كثير من علماء الغرب أنفسهم، إذ يقول غوستاف لوبون: ((أن أوربا مدينة للعرب بحضارتها، والحق أن تأثير العرب في الغرب ليس أقل منه أهمية في الشرق(...) وترى تأثيرهم العلمي والأدبي والخلقي فيه عظيما))[2].

ومن هنا يعترف ابن باديس بهذا التأثير المتبادل بين الحضارات، ويتخذ موقفا توفيقيا بين الاستفادة من الحضارة الغربية وبين الحفاظ على حضارة الأمة ومقوماتها الشخصية[3]، وفي هذه المسألة لا يخرج ابن باديس عما كان يدعو إليه كثير من المفكرين العرب المسلمين في بداية عصر النهضة أمثال خير الدين التونسي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده من ذوي النزعة التوفيقية، الذين يعتبرون أن النقل الكلي للحضارة الغربية أي التغريب أمر مستحيل، ولا يجلب للأمة إلا المشاكل والاضطرابات.

فقد كان خير الدين التونسي يحث المسلمين على الأخذ بالحضارة الغربية للحاق بركبها، وكان ذلك من أهم أهداف تأليف كتابه: "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، حيث قال أن: ((الباعث من ذلك هو تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الإعراض عما يمجد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا

---

(١). عمار طالبي، ابن باديس ... ج٤، ص ٣٤٠.

(٢). غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٥٦٤.

(٣). عبد الكريم بوصفصاف، موقف ابن باديس من الاستعمار الفرنسي في الجزائر (١٩٢٥ — ١٩٣٩) مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، العدد ١٢، ١٩٩٩م، ص١٢٣.

بمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي أن يهجر وتآلفهم في ذلك يجب أن تنبذ ولا تذكر، حتى أنهم يشددون الإنكار على من يستعين شيئا منهم وهذا على إطلاقه خطأ محض))[1]، أي أنه هنا يرى ضرورة التوفيق بين الأخذ عن الغير، وبين مقتضيات خصوصيتنا الإسلامية.

وبهذه الرؤية كان ابن باديس وغيره من رواد النهضة العربية الإسلامية واضحا في موقفه من الحضارة الغربية ومن علومها منذ أكثر من نصف قرن، ووجد بذلك معادلة فكرية ناضجة في بنيانها وأهدافها، تلمس من خلالها الحلول التي يمكن أن تجد حلا للإشكالية التي كثيرا ما دارت حولها جدالات في الفكر العربي الإسلامي والمتمثلة فيما يلي: كيف يمكن لنا النهوض بمجتمعاتنا، هل بالرجوع إلى أصالتنا وتراثنا ورفض كل ما وصلت إليه الأمم الأخرى؟ أم يكون ذلك بالاعتماد على الأمم والشعوب الأخرى، بما وصلت إليه، وما يمكن أن تقدمه لنا؟ أم يجب أن نميز في ذلك الاعتماد بين ما يوافقنا وما لا يوافقنا؟ بين ما يخدم مجتمعاتنا وما لا يخدمها؟ وهل بالضرورة ما يخدم المجتمعات الأخرى يخدمنا؟.

إن الحل الذي وجده ابن باديس والذي كان فيه واضحا، هو إدراكه المستوى الحضاري الذي توجد عليه مجتمعاتنا، والمستوى الذي توجد عليها المجتمعات الأخرى، وأدرك الهوة بينهما، لذلك رأى أنه من فائدتنا وفائدة مجتمعاتنا، أن نعتمد على حضارة الآخر، وأن نأخذ ما يتوافق وأصالتنا وثقافتنا، ولعل هذه

([1]). خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق المنصف الشنوفي، طبعة تونس، ط٢، ١٩٧٢م، ج١، ص٩٠.

الوجهة أيضا كانت هاجس أغلب المفكرين العرب المحدثين والمعاصرين، الذين حاولوا بكل الطرق إيجاد مسوغات للتوفيق بين الاقتباس من الحضارة الغربية، والواقع المتميز للأمة العربية الإسلامية.وابن باديس وإن كان يلح على أخذ المقتبسات العلمية والحضارية مهما كان مصدرها، فإنه ينطلق من المبدأ الإسلامي الذي لا يرى فيه تناقضا بين الدين والعلم، إذ لو كان هناك تعارضا بينهما كما يرى، لما دخلت إلينا العلوم الحديثة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، على أيدي رجال الدين المصلحين أمثال محمد عبده[1]، كما أن الإسلام ذاته: ((يمجد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير))[2]، ولا يعادي أي علم من العلوم، فهو يعظم العلم، ومحبي العلم ويدعو إلى احترام حامليه، وآياته الدالة على هذا كثيرة ــ لا يتسع المجال هنا لذكرها ــ ومن ثم كان ابن باديس يقول لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، فإن العلماء من الأمة بمثابة القلب إذا صلح، صلح الجسد كله، فالعلوم: ((كلها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة وخدم علماء الإسلام بالتحسين والاستنباط ما عرف منها في عهد مدنيته الشرقية والغربية حتى اعترف بأستاذيتهم علماء أوربا اليوم))[3]، فيجب على العرب المسلمين اليوم، التحرر من هذه العقد التي كونتها فيهم الحضارة المعاصرة، وينطلقوا في بناء حضارتهم الجديدة انطلاقا من المفهوم الإسلامي السليم للحضارة

---

(١) السيد محمد عشماوي، الموقف من الغرب الأوروبي من خلال كتابات الإمام عبد الحميد بن باديس، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، العدد ١، السنة الأولى، يونيو ١٩٩٢م، ص ١٢٣

(٢) عمار طالبي، ابن باديس ...، ج٢، ص ١٠.

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص١٧٧ ــ ١٧٨.

وللإنسانية، لمواصلة رسالتهم الخالدة في التاريخ، لأن: ((الكمال الإنساني متوقف على قوة العلم، وقوة الإرادة وقوة العمل، فهي أساس الخلق الكريم والسلوك الحميد))[1].

وهذا الموقف من ابن باديس لا يعني أنه موقف تمويهي متناقض كما يزعم ناصيف نصار[2] وإنما هو يعبر عن موقف واضح كان هو وجهة آرائه في كثير من المسائل التي عاصرها ولاسيما مسألة الاقتباس الحضاري وإلغاء الخلافة الإسلامية، وكذلك فإن إشادته بالدور الحضاري الذي لعبه المسلمون كان يعبر بالفعل على أنهم كانوا سادة العالم عندما اعتمدوا على العلم وعلى التفكير العقلي ورفعوا من شأنهما، وأخذوا بأسباب التمدن والعمران سواء الذي وصلوا إليه، أو وصلت إليه الشعوب الأخرى قبلهم، إذ أنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من مدنية وحضارة وتقدم إلا بالعلوم والصنائع[3]، لذلك كان يرى دائما أن: ((السبب في التقدم والتأخر هو التمسك والترك للأسباب))[4]. ولا يعود إلى مكونات فطرية في الأجناس البشرية، ومن ثم يجب على العرب المسلمين أن يبددوا كل الأوهام التي تقف حاجزا أمام تقدمهم العلمي والصناعي، الذي هو الأساس المتين لكل قاعدة حضارية، ومن ثم كان يقول كن ابن وقتك، تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب

---

(١) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص١٢٦.

(٢) ناصيف نصار، تصورات الأمة المعاصرة، دار أمواج، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م، ص ١٠٣.

(٣) فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام...، ص ٣٤٨.

(٤) عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس، دار الكتاب الجزائري، الجزائر، ١٩٦٤م، ص٧٨

الحياة وطرق المعاشرة والتعامل، و: ((كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك، وفي فلاحتك وفي تمدنك وفي رقيك))[1].

وعلى ضوء ما سبق فإن ابن باديس وإن كان يدعو إلى تمثل الحضارة الغربية، فإنه لم يدع إلى أخذها بنمطها الغربي كما هي بجميع مظاهرها وصورها، بل لقد كان يؤكد على ضرورة أخذ الجانب المادي منها، بينما الجانب الروحي المعنوي والأخلاقي فإن المجتمع العربي الإسلامي له من القيم التي جاءت بها شريعته الإسلامية ما يمكن اغناؤه على كل قيم أخرى مستمدة من حضارات أخرى، والأخلاق الإسلامية لم تلغ كما هو معروف خصوصية المجتمعات التي وصلتها والمتمثلة في عاداتها وتقاليدها[2] التي كانت تشكل هويتها، واستمرارية وجودها، ولذلك فإن كل من يتمسك بالشريعة الإسلامية يستغني عن كل قيم آتية من حضارات أخرى، وأن الحضارة الإسلامية ذاتها فريدة بين الحضارات الأخرى خصوصا في نزعتها الإنسانية غير العرقية[3].

ويبدو أن ما وصلت إليه الحضارة الأوروبية في عهد ابن باديس كان يوحي بوصولها إلى مرحلة الكهولة، لذلك وجب علينا أن ننظر إليها بعيون فاحصة لأن دورها التاريخي التمثيلي كما يقول بوالصفصاف انتهى[4]، ومن ثمة لا يمكن قيام

---

(١) عبد الحميد بن باديس، الشهاب، العدد ٤٩، أوت، ١٩٢٦م.

(٢) ناصيف نصار، المرجع السابق، ص ٩٦.

(٣) محمد عمارة، العرب والتحدي، ص٢٦٥.

(٤) بوالصفصاف عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، ص ٨٦

حركة جديدة بعد الآن إلا من الشرق، ولكن أي شرق؟ إذا كان المقصود به العالم العربي الإسلامي فإن ذلك لم يحدث، أما إذا كان المقصود به ما عدى أوربا فإنه قد يصدق على كثير من الدول غير الأوروبية، وعموما فإن دعوة ابن باديس إلى الأخذ بالعلم والمعرفة لبناء حضارة ذاتية هي التي جعلته كما يقول فهمي جدعان [1] خير من مثل الدعوة التي تدعو إلى النهضة والتقدم من خلال الاعتماد على العلم والتربية الأخلاقية.

٣ - الحضارة ونشأة الاستعمار

يربط ابن باديس، نشوء الاستعمار بالحضارة، ولذلك لم يكن عنده الاستعمار مجرد ظاهرة سياسية عابرة، بل إنه ظاهرة حضارية ترتبط بمراحل التطور الإنساني، ومظاهره، سواء كانت أخلاقية، أو سياسية، أو فكرية، أو علمية، أو اقتصادية، وقد يكون هذا الشعور والربط نابعا من الظروف الخاصة التي عايشه، تحت نير الاستعمار الفرنسي، ولذلك يرى فيه ابن باديس أنه كان شرا ونقمة على البشرية، لأنه يسلبها من كل مظاهرها الإنسانية، وهذا الموقف من ابن باديس كان نابعا من الظروف التي عاشها وعاصرها في مجتمعه، والمعاناة التي لحقت به، فمواقفه كانت مناهضة للاستعمار بشكل عام، والفرنسي بوجه خاص، لأنه كما قال، فإن من: ((جنايات الاستعمار الأوروبي على البشرية أنه قلب حقائق التاريخ على الناس فقد صور الأمم التي ابتليت به وأصيبت بشره من الهمجية والوحشية والتأخر والانحطاط

---

(١) فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام...، ص ٤٥٣

لا أبشع منها ذلك ليبلور استيلاءه عليها))[1]، من خلال سيطرته على عواطفها وهواجسها، بكلمته الاستعمارية نفسها، لأنه يحاول تجميد كل القوى التي تحاول التخلص منه.

وهكذا فإن ابن باديس يعتبر الاستعمار، من السمات الأساسية للحضارة الغربية، طالما أنها هي التي أوجدته في كثير من بقاع الأرض، على اعتبار أن الاستعمار يبرر وجوده في المناطق التي احتلها وسيطر عليها، بكونها تضم شعوبا وجماعات متخلفة، بينما يعتبر شعوبه هي شعوب متقدمة ومتحضرة، و بناء على ذلك فإن لسان حال الاستعمار، يقرر أنه من واجب الإنسان الغربي الذي يحمل تلك المظاهر الحضارية أن يهيمن ويسيطر ويستغل تلك الشعوب، زاعما أنه يطورها ويرتقي بها إلى المستوى الحضاري الذي وصلت إليه الشعوب الأوربية نفسها ـــ وهو أمر لم يتحقق ـــ.

من هذا التمايز الحضاري الفعلي، وتفوق الإنسان الغربي، انطلق الاستعمار في احتواء الشعوب المتخلفة، وهو ما تفطن إليه ابن باديس، و اعتبر أن الشعارات التي حملتها الحضارة الغربية ـــ وخاصة فيما حملته الثورة الفرنسية من مظاهر العدل والحرية والمساواة ـــ ما هي إلا قيم زائفة لأنها وإن كانت قد عمرت الأرض وطورت من الوسائل الحياتية إلا أنها عذبت الإنسان وأفسدت طبيعته البشرية بما خلقته فيه من سلوكات غير سوية، وهددت وجوده بالفتن والحروب التي سيطرت فيها شعوب وأمم على أمم أخرى واستغلت كيانها ووجودها الطبيعي. إن مضمون هذه الفكرة، لم يشر إليها ابن باديس فحسب، بل لقد أشار إليها أيضا بناة النهضة الأوروبية

---

(١) عمار الطالبي، ابن باديس ...ج٤، ص ٣٣.

الحديثة أنفسهم، أمثال روسو الذي يعتبر أن المرحلة الطبيعية التي مرت بها الإنسانية هي مرحلة خيرة، وأن المرحلة المدنية أو السياسية هي التي أفسدت تلك الخيرية الكامنة في طبيعة الإنسان، ولعل هذا ما قصده ابن باديس عندما تحدث عن الإنسان الأوربي الذي يدعي التقدم والحرية، حيث قال: ((وما أعداؤك إلا الذين وقفوا لك في طريق الحياة والتقدم، فقد عرفتهم وعرفوك فسدوا عليك أبواب الرزق والعلم، وسلبوك الحرية والثروة واستغلوك كما تستغل الحيوانات العجماء، بل أشد وأشر))[1].

وهكذا كان ابن باديس لا يميز بين شعب أوروبي وآخر في تلك المظاهر الاستعمارية، فهو ينظر على سبيل المثال للاستعمار الألماني بنفس النظرة التي ينظر بها إلى الاستعمار الفرنسي، فقد قال عندما أسس الألمان في الثلاثينات من القرن العشرين إذاعة إلى الشعب الجزائري تتعاطف معه وتبين له نواقص الاستعمار الفرنسي أن ذلك ما هو إلا صراع استعماري بين ألمانيا وفرنسا من أجل استعمارنا، وفي ذلك قال عن تلك الحرب الأثيرية أنها تمثل حقد الاستعمار: ((بعضه على بعض، ورغبة بعضه في إثارة مستعبدي بعضه عليه واستمالتهم إلى نفسه لأن تلك الأمم المستضعفة هي مادة حياته وأساس قوته فهو يتقاتل من أجلها تنافسا عليها لا رحمة بها وإن تظاهر بالعطف والشفقة))[2].

---

(١) المصدر السابق، ج٣، ص ٣٥٧.

(٢) عبد الحميد بن باديس، نحن بين راديو باري وراديو الجزائر يستشهد بنا كل على الآخر، البصائر، العدد ١٦٥ في ٢٢ ربيع الأول ١٣٥٨هـ ـ مايو ١٩٣٩م، أو مازن صلاح حامد مطبقاني، ج العلماء، ص٢٣٥.

من هذا المنطلق، فإن الحضارة الغربية، حسب ابن باديس، وحسب كثير من مفكري النهضة العربية الحديثة، لم تقم إلا على استغلال واضطهاد الشعوب التي استعمرتها، وفي ذلك يشير جمال الدين الأفغاني إلى أننا لو جمعنا كل ما اشتملت عليه الحضارة الغربية من مكتسبات علمية وما في مدنيتها من خير وضاعفناه مضاعفة، ووضعناه في كفة ميزان، ووضعنا في الأخرى الحروب وويلاتها، فلاشك أن كفة المكتسبات العلمية والمدنية والشرف هي التي تنحط وتغور، وكفة الحروب وويلاتها هي التي تعلو وتفور، فالرقي على ذلك النحو في تلك النتيجة إن هو إلا جهل محض وهمجية صرفه وغاية التوحش[1]، وكذلك يقول محمد عبده في وصفه للحضارة الغربية: ((أن هذه الصور الظاهرة التي يظنونها تمدنا، كسحابة حشيت بالصواعق يتوهم الغافل من بريقها ولمعانها أنها تأتي بوابل ينعش البقل ويحي الموات، ولكن إذا حل الأجل أمطرت ما يذهب بالحياة ويبدد الأجسام))[2].

وعلى هذا فإن ما يقوم به الإنسان في الحضارة الغربية لا يعد حضارة لأنه يعتقد بأنه إنسان متميز عن بقية البشر[3] وهو شعب أرقى من كل الشعوب، وهذه دعوة تتعارض مع المكونات الطبيعية للإنسان، لأن الحضارات الإنسانية كما بينها التاريخ وأثبتتها آثاره أنها ليست حكرا على شعب معين من الشعوب ولا على

---

(١) محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٠م، ص ١٣٩، ١٤٠.

(٢) محمد عبده، الأعمال الكاملة، جمع وتحقيق وتقديم محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٢م، ص٤١.

(٣) السيد محمد عشماوي، المرجع السابق، ص ١٢٢.

جنس من الأجناس، فالحضارة الإنسانية هي دورات متداولة بين الشعوب تنتقل من جنس بشري إلى جنس آخر وفق صيرورة الوجود الإنساني، ووفق قانون التطور الذي تخضع له الأحداث التاريخية.

ورغم تلك المظاهر التي حملتها الحضارة الغربية إلا أن ابن باديس يؤكد أنه ينبغي أن نفرق في كل الأمم بين الروح الإنسانية والروح الاستعمارية، والغرب نفسه في نفسية أهله هذين الجانبين معا، فقال:((إننا نفرق جيدا بين الروح الإنسانية والروح الاستعمارية في كل أمة، فنحن بقدر ما نكره هذه ونقاومها، ونوالي تلك ونؤيدها، لأننا نتيقن كل اليقين أن كل بلاء العالم هو من هذه وكل خير يرجى للبشرية إنما يكون يوم تسود تلك، فلتسقط الروح الاستعمارية ولتندحر ولترتفع الروح الإنسانية ولتنتشر))[1]، كما انتشرت عهد الفتوحات الإسلامية، والتي شهد عليها الغربيون أنفسهم، وفي ذلك يقول غوستاف لوبون: ((وما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم))[2].

إن المشكلة الأساسية لكل الشعوب البشرية هي بلا شك مشكلة حضارية، وأن المفهوم الذي أعطاه لها ابن باديس تجاوز من خلاله مجرد الكلام اللفظي الذي اتسمت به الدعوات الإسلامية السابقة ولاسيما دعوة محمد عبده، إذ كانت دعوته

---

(١) محمد الطاهر فضلاء، من أقوال الشيخ الرئيس ... ص١٩٥.

(٢) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٦٠٥.

كما يقول فهمي جدعان أقرب إلى النفوس وأدخلها للقلوب[1]، لأنها اتخذت من المبدأ القرآني: ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم))[2] دليلا ومنهجا، فالاستعمار ذاته لم يتولد إلا من تقدم علمي حضاري، ولم يكن نزوة شخصية عابرة مارسها أشخاص معينون.

٤ ـ البعد الإنساني في الحضارة

إن الحضارة الإنسانية التي فهمها ابن باديس ودعا إليها، هي الحضارة التي يحث عليها الإسلام ويدعو فيها إلى العمل من أجل الوصول إلى سعادة الإنسانية، وذلك بتغيير واقع الفرد في أي مجتمع مهما كان معتقده، فالإسلام، لم يدع المسلمين إلى التغيير والبناء الحضاري، فحسب، وإنما دعا كل الأمم والشعوب إلى ذلك ـ كما سبقت الإشارة ـ وذلك بناء على قوله تعالى: ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم))[3]. إذ لا يفهم من معنى هاته الآية شخص ما، بمفرده، ذكرا كان أم أنثى، مؤمنا كان أم كافرا، وإنما ينصب معناها على جميع البشر، مهما كانت ألوانهم وأجناسهم وخصائصهم البشرية، سواء كانوا قوما، أو مجتمعا معينا، أو

---

(١) فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ...ص ٤١٠.

(٢) الرعد، الآية ١١.

(٣) الرعد، الآية ١١.

أمة[1]، لأن الإنسان في جوهره، وكما يراه القرآن هو نشاط خلاق وعقل متصاعد من حال إلى حال[2].

وفي هذا المعنى، يؤكد ابن باديس وانطلاقا من سيرة الرسول صلى الله عليه التي وجه دعوته للإنسانية جمعاء على أنه زارع محبة ولكن على أساس من العدل والإنصاف والاحترام، مع كل أحد من أي جنس كان ومن أي دين كان، وكان بناء على ذلك يدعو إلى ضرورة ربط صداقات بين أبناء البشر، ومن ثم يعرف الصديق فيقول مخاطبا: ((وما أصدقاؤك إلا الذين يحترمون الإنسانية في جميع أجناسها وجميع أديانها ويرحمون الضعيف وينصرون المظلوم، ويقاومون الظلم والاستعباد))، وأعداء الإنسانية هم الذين يتصفون بالصفات المعاكسة للأولى[3].

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو، هل استطاعت الحضارة الإنسانية المعاصرة تحقيق هذه الصداقات الإنسانية التي كان يدعو إليها ابن باديس؟ من الصعب إيجاد مظهر من مظاهر الصداقات التي كان ابن باديس يؤمن بها، والنابعة من عقيدته وتراثه في هذه الحضارة المعاصرة، لأنها الآن تريد فرض وسيطرة جماعة معينة على باقي الجماعات الإنسانية، بالاستحواذ على أدوات الحضارة ووسائلها، باسم العولمة أي عالمية سيطرة الحضارة، واستفادة جماعة ما دون جماعة أخرى،

---

(١) جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، المطبعة العربية، غرداية الجزائر، ص٣٨.

(٢) هـ.أ.ر.جيب، الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ترجمة هاشم الحسيني، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص١١٤.

(٣) عمار الطالبي، ابن باديس ...، ج٣، ص١١٩.

وليس استفادة الإنسانية جمعاء مما أنتجته تلك الجماعة، في مظاهرها المختلفة. معنى ذلك أن طبيعة الحضارة المعاصرة ليست مسألة استحواذ على الأدوات والوسائل، فحسب، بل هي سعي مجتمع أو مجتمعات معينة للسيطرة على خيرات مجتمعات أخرى واستغلالها، رغم أن هذه الممارسة تتنافى وطبيعة الحضارة الإنسانية في ذاتها.

فالحضارة الغربية المعاصرة استطاعت أن تنقل إشعاعها إلى أقاصي العالم المختلفة، وهي عكس الحضارات السابقة التي كانت تتمركز في مناطق معينة تزول بزوالها في تلك المنطقة، وبذلك لم تستطع تحقيق سعادة الإنسانية جمعاء. طالما أن الحضارة اليوم، تنتشر في كل مكان، ومع ذلك فقد: ((يتضاءل جنين هنا ولكنه ينضج وينمو هناك، فنحن نصادف دائما أشكالا من المقاصد تحتفظ بالحضارة في مستواها وفي حيويتها، حائلة بينها وبين الأفول، وتلك هي نتيجة توحيد المشكلة الإنسانية. ولقد حققت العبقرية الغربية هذا التوحيد حين أوصلت مقدرة الإنسان إلى المستوى العالمي))[1].

ولهذا السبب فإن الحضارة الإنسانية التي ينشدها الإنسان باعتباره كذلك، في اعتقادنا تهدف إلى تطوير الآليات والوسائل التي يستخدمها، وتهدف في الوقت نفسه إلى تطوير وعي الإنسان وروحه، وهذا هو الهدف الذي سعت إليه الإنسانية عبر مراحل تطورها الفكري في ظل صيرورة التاريخ، انطلاقا من المحاولات الأولى مرورا باليونان ووصولا إلى الحضارة العربية الإسلامية، التي جسدت هذا المفهوم الإنساني للحضارة، أي تحقيق إنسانية الإنسان، باعتباره كائنا طبيعيا خلقه الله، وكرمه عن باقي المخلوقات، بغض النظر عن الأدوات والوسائل التي يمتلكها ويستخدمها.

---

(١) المصدر السابق، ص٢٧٤.

وفي هذا السياق، يرى ابن باديس أن الحضارة الأوروبية، هي امتداد لحضارات الأمم السابقة، من حيث التطور في العلم والمعرفة، وبالتالي فإن الحضارة الإسلامية التي هي كغيرها من الحضارات الإنسانية قد أثرت في الحضارة الأوربية، كما تأثرت هي كذلك بالحضارات السابقة عليها، فلا احتكار ثقافي وحضاري بين الأمم، وفي هذا المعنى يقول ابن باديس: ((نقلت المدنية الإسلامية أصول المدنيات السابقة عليها نقل الأمين ونخلتها نخل الناقد البصير، وزادت عليها من نتائج أفكارها، وثمار أعمالها ما كان الأساس المتين لمدنية اليوم))[1]، إذن هناك تفاعل اجتماعي في إطار منتظم من العلاقات الديناميكية، يحدث بين المجتمعات الإنسانية في عملية تدوين تاريخها، وتحقيق ذاتيتها، وبناء حضارتها، فلا حضارة ولا تقدم ينبع خارج هذه العلاقات والتفاعلات، وما مخلفات الحضارة الإنسانية إلا أكبر دليل وبرهان على هذا التفاعل.

وفي هذا المعنى، يرتبط الإنسان، في المفهوم الحضاري، عند ابن باديس، بالمكان والزمان الذي لا ينكر فيه التبادل الحضاري بين الأمم.وكلما تحقق هذا الهدف الطموح في التبادل، فإنه هو الذي يجعل للحضارة بعدا اجتماعيا وإنسانيا، يتجاوز الفردية الآنية أو الظرفية، ويحقق الحاجة الإنسانية المستديمة والمستمرة، وهو الهدف الذي يجب أن تسعى إليه كل الأمم المعاصرة في عملية بنائها الحضاري. وفي اعتقادنا أن هذه هي ملامح التي يجب أن تطبع الإنسان المعاصر، الذي هو مؤهل بهذه الطبيعة إلى بناء الحضارة، فالاهتمام بها وبأدواتها أصبح ضرورة ملحة يجب أن تدخل في مجال وعيه، وفي مجال الدور الهام المنوط به، والمميز له.

---

(١). المصدر نفسه، ج٣، ص ٥٠٨

فابن ابن باديس، عندما تطرق إلى الإنسان ــ وهو بالطبع متــأثر بعقيدتــه الإسلاميةــ قد تطرق إليه من حيث هو كذلك، بغض النظر عــن لونــه .وموطنــه وعقيدته. بمعنى أن الإسلام لم يميز بين المسلم وغيره في الإنسانية، علــى اعتبــار أن الدين الإسلامي هو دين شامل للإنسانية جمعاء في كل توجهاته، ويتضح ذلك مــن خلال قوله تعالى: ((ولقد كرمنا بني آدم))[١]، وهذا التكريم الإنســاني في القــرآن الكريم يفوق كل الصفات والمواصفات والحقوق التي يمكن أن تعطى للإنسان في أي تشريع بشري في هذا الوجود، وهذا هو الضمان الذي يدفعنا إلى الإيمان والاعتقــاد بوحدانيته، وبعظمته بالنسبة لذواتنا ومصالحنا.

إن الإنسان في هذه الحالة، التكريمية الإلهية، مطالب بتقدير هــذا التكــريم، سواء لنفسه أو للآخرين، والمسلم هو أولى من غيره بهذا التقــدير، لأن الله كرمــه بتكريم خاص باعتباره مؤمنا، حيث قــال عــز وجــل: ((ولله العــزة ولرســوله وللمؤمنين))[٢]، إن هذه الخصائص هي سمة مميزة للحضارة الإسلامية التي انصهرت في بوتقتها، كل الحضارات الإنسانية الأخرى.

وفي الأخير إننا نعتقد أن البعد الإنساني الذي أعطاه ابن باديس للحضارة ينبع من دعوته نفسها التي وإن كانت مصبوغة بصبغة إسلامية إلا أنها كانــت عامــة لا تتعلق بمجتمع معين، وإنما يمكن أن يتمثل أسسها أي مجتمع كان على وجه الأرض في بعده الإنساني، وهي الدعوة نفسها التي وجهها للمسلمين قبل غيرهم، منذ أكثــر من نصف قرن، قال فيها: ((وليعلم إخواننا المسلمون عظيم نعمة الله علــيهم بمــا

---

(١) الإسراء، الآية، ٧٠.

(٢) المنافقون، الآية ٨.

شرعه لهم من أصل التسامح العظيم فيزدادوا به تمسكا فيعيشوا سالمي الصدور من داء الحقد الديني والتعصب الممقوت، وليعرف الذين يبثون تلك السموم أن أعمالهم لا تخفى على غيرهم، فعسى أن يقلعوا عنها ويرجعوا للعمل معنا على بث التسامح بين عباد الله))[1]، وهي نفس المظاهر المسيطرة على بعض الأفراد من مجتمعنا العربي الإسلامي، وفي ثقافته، وقد نبعت وترسخت من روافد عديدة لا يتسع المجال هنا لذكرها، وإن كنا تعرضنا إلى بعضها في متن موضوعنا.

فليس من باب الصدفة أو المصادفة أن تنظم اليوم هنا وهناك ملتقيات وندوات، ترفع نفس الشعار الذي رفعه مفكرينا، لبث روح الحوار والتسامح الحضاري بين أبناء البشرية، لولا تفشي ظاهرة الصراع والتناحر، سواء بين أبناء الأمة الواحدة، أو بين أبناء البشرية قاطبة، ونأمل في الأخير أن تجسد البشرية هذه الدعوات، لكي تحقق سعادة واستقرارا للإنسان حيثما كان، وأينما وجد.

و الإسلام اليوم مؤهل من أي وقت مضى لتجسيد هذه المبادىء بما يشتمل عليه من قيم روحية وأخلاقية، لا تميز بين البشر، وذلك ما أكده غير المسلمين، حيث يقول، دود ديان، إن: ((الإسلام يمثل في العلاقات العربية الأوروبية الشجرة التي تحجب الغابة، وهي تحجبه بشكا مكثف حتى أن حوار الأمس لم يكشف عنه بما فيه الكفاية))[2]، فدور الدين في كل حوار لا يمكنه إبعاده.

---

(١) عمار الطالبي، ابن باديس ... ج٣، ص٤٩٣.

(٢). دودو ديان، الحوار الثقافي الأوروبي العربي، أو لبس الهوية، في: الحوار الثقافي العربي الأوروبي متطلباته وآفاقه، ص٧٠.